كرم مابر





لا شيء!



" لا شيء "

كرم صابر

اسم المجموعة : لا شىء
المؤلف : كرم صابر

الطبعة الأولى : ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٣/٩٣٨٢
الترقيم الدولي : ٠-٠٠٧-٧٣٠-٩٧٧-٩٧٨

وعد للنشر والتوزيع
١٣ محمد محمد صبرى أبو علم – وسط البلد –القاهرة .
تليفاكس: ٠٢٢٣٩٠٢٤٨٢
موبايل: ٠١٠٠٠٠٢٦٣٢٦

www.darwaadalmasry.com
darwaad@hotmial.com
darwaad@yahoo.com

الإشراف العام : **الجميلي أحمد**

الإخراج الفني : سلفراز

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

ألقتْ برصاصة فى وجهى غلَّفتها بمظروف أنيق،

واندهشتْ لصمتى .

فلقَّبها الحائر هذه الحكايات .

ذكرى الفصول المضحكة

(١)

قبر مفتوح على روحى ، ينادني لأدخل ، أتلمَّس شفتيه ، أتحسس أعلى فتحته ، أسمع صوته ينادني لأهجم بكل بشهوة على مدخله .

أقف مدهوشا من رغبتى الغائبة ، فيصرخ شعره المفرود : " تحسسنى ، أدخل بجوارحك في فتحاتي " .

أبتعد عن جحيمه ، فيداعبنى عريه ويعاتبني، ويدعوني للولوج ليدفئني ويطيب جروحى.

وحدنا جمعتنا السماء ، أحاطت أجسادنا أجنحة الطيور ، قلبى المرتجف على الشاطىء يغرق فى نورها ، أنزع القطعة الأخيرة عنها ، أتحسس خلف أذنها ، أدلك ضلوعها.

عيونها الباحثة عن الشفقة تنادينى ، أذوب فى موجها الغامض ، أدخل بجوارحها ، متحسساً ملمس شفتيها الناعمة .

أدخل إلى قبرها المجروح ، متصنعاً العلاج والمرض ، فيظهر قلبها مرة واحدة كنجمة راحلة للنسيان .

اليوم أتذكر كل ذلك وأرفض بقسوة فتح باب ذاكرتى .

المطر المنعش يدفعنى للجرى باحثاً عنها خلف الأسوار ، لم يكن سوى الأسياخ الحديدية التى تلتف حول الحديقة ، شاهدت امرأة تقف من بعيد تحتمى بشجرة صفصاف مورقة .

نظرت برقة لطيفى وداعبت قلبى وأرسلت رحيقًا دافئًا ، ذكرنى بحبيبتى ، أعاود النظر من وسط الأسياخ إلى عيونها ، ينفرط عقدها فى قلبى ، أستقبل دفقات النسيم الهاربة من وسط الأمطار بنشوة ، تدفعنى للجنون .

رغم المسافة البعيدة بيننا ، لكن تساؤلاتها المغرية تلاحقنى كأصوات البلابل : "من يُهطل المطر بغزارة فوق رؤوسنا المكشوفة ؟ "

السحب تتكاشف ، والسماء تتراقص ، ورذاذ المطر يغرق ملابسى ، أتشبث بالأسياخ الحديدية ، محاولاً الامتلاء برحيق الجنة ، تداعبنى وترفض مجاراتى ، وتصرخ بهالتها من تحت أعراف الصفصافة قائلة : " الدنيا أجمل مما تراها عيناك".

(٢)

ليلة الأمس نمت بشقتى بمنزل والدى بالحى القديم ، وجدتها فجأة عارية أمامى ، ترفع فى تلصص غطاء نومى ، تتحسس قضيبى المنتصب ، وأنا بين النوم واليقظة .

كانت عيونها مندمجة فى روحى لمعرفة تفاصيل أعضائى ، تيقظت ، لم أبالِ بملابسى الداخلية المبلولة .

اقتربت منها وفتحت شباك الغرفة ورايت نجوم السماء ، ارتدت سريعاً قميصًا أسود شفافًا يظهر مفاتنها .

احتضننتها من الخلف ، لامس عضوى المنتصب ليتها الطرية ، سرى الدم بعروقى ، استدارت فى حضنى ، سلمتنى شفتيها لألتهمها .

ضغطتُ بصدرى على نهديها الطريين ، تحسست حلماتها المنتفضة ، أمسكتْ بإحدى يديها قضيبى ، وبالأخرى التقطت أطراف أصابعى لتضعها على فرجها .

شدتْ ملابسى لأسفل ، داعبتْ بين أفخاذى ، خلعتْ كلوتها ، فأحسست بفجيعتها ، كانت محترقة عن آخرها ، لم يتبق منه إلا فتحة سوداء معتمة ، نظرت لدموعها المنهمرة من عيونها ، وتركت الحجرة عاريا .

كيف تمكنتُ من تحويل الجنة إلى نار مشتعلة وحولتُ النضارة والخضرة إلى مرتع للخراب؟

مشت بجوارى وأمامى وهى مملوءة نشوة ، ركزتُ عليها بقسوة قلبك ، فانفجرت بالجفاف ، لم يعد فى ذاكرتها سوى جسد ميت ، فقد مصدر الرى الوحيد لروحه .

ومع ذلك استكثرت عليها ترك سريرك والرحيل بعيداً ، تحملتْ قسوتك وغدرك على أمل أن تغفر لجسدها المحترق ندوبه ، عايرتها وانتظرت منها الغفران.

- ماذا كانت تفعل لو انتظرت رحمتك ؟

اغفر لنفسك القسوة ، وسامح الآخرين الذين توسلوا لقلبك ، لا تحمل لهم الضغينة ، فهم لم يعرفوا فى طريقهم إليك إلا الحب .

(٣)

لو قدر لى أن أمسك ريشة كى أنقش الألوان على الصفحة البيضاء ، لرسمت "ورك" امرأة بدون جسد .

وأظهرت فرجها متمعناً فى تفاصيله :" الشفة اليمنى أضخم قليلاً من اليسرى ، زنبوره المتدلى من أعلى الفرج متأهب للفريسة ".

لسجلت صوت الشفتين ، وهما ينفتحان وينغلقان بشهية فاجرة ، ودارت ريشتى حول "الوركين " تحاول ملئهما ، وظللت باللون الأسود الخافت بياض الورق ، آملاً رؤية باقى جسدها ، لكن ذاكرتى تفشل تفشل الان فى العثور على تفاصيل المرأة التى عذبتنى . وتتساءل : " أين ذهبت اللوحة التى دأبت على الظهور بكامل تفاصيلها نهاية كل حلم؟ "

أتقلب فى سريري على صوت المنبه فيعودنى الحلم ، أكفف وأقدام خضراء مقطوعة ومفصولة عن بعضها تظهر فوقى على سقف الحجرة ، أفتح عيني على ألوانها الغريبة ، فيهطل السقف ببقايا الأكفاف المبتورة على جسدى .

- لماذا كان الدم المتساقط على جسدى من سقف الحجرة لونه أخضر؟
- أهى أكفف وأصابع أصدقائى أم أعدائى ؟"
- هل هذه الأكفف لبشر عرفتهم يتلمسون النجاة ؟ ورفضت فى اللحظة الأخيرة إغاثتهم ، رغم تظاهرى باليقظة ، كى أترك عيونهم وأياديهم معلقتين على سقف الحجرة تتوسلان العفو .
- أكنت خائفًا عليهم أم على روحى من الفقد ؟
- هل يمكننى اليوم تمييز يديها عن بقية الأيادى ، التى يتساقط دمها الأخضر فوق رأسى ؟

نبرة صوتها تداعبنى رغم أصوات الحذر المحيطة بقلبى ، الأكفف الخضراء تلتف حول سريرى وتتوسل بنور عيونى نسيان صوتها وخطوات أقدامها المقطوعة .

أقوم من سريرى ، ودفء صوتها لا يفارق أذنى ، وهى تنطق جملتها الأخيرة : " أين ضحكتك المليئة بالأمل؟"

(٤)

عقلى المتقد ، يسخر من الأفعال التى تقاوم الذاكرة ، ويردد : " نحن الذين نصنع مصيرنا بأنفسنا ، ولا أحد يمكنه التأثير على قرارنا " .

النور يتزايد من حولى ويناديني ، أسمع صوته ، دون إرادة أسير وراءه ، يأخذني بعيداً إلى هناك .

خلف الشباك والأشجار ، أقف عارياً وحيداً وسط الصحراء ابحث عن المرأة التى فجرتنى .

أخلعتنى ملابسى ، ونفختْ فى روحى ، فشاهدت نفسى طائراً فوقها ، أحاول التهام روحها .

تحولتْ ليمامة بيضاء عيونها طيبة ، وقالتْ : " أرجوك اعشق رائحتى ، بحة صوتى ، أنينى ، طيبة قلبى " .

تغيرت بفعل النور إلى ظلام ، ولم أتمكن من مجاراتها ، فجأه عدت كسابق عهدى ، مذهولاً وعاجزًا عن تكذيب نفسى التى طارت وراءها وحاولت وفشلت.

أطراف أصابعى تلامس الأرض ، تعود ورائى وتنادينى آملة فى الاختلاء بروحى وسط الجبل .

يربك كيانى رائحة غروبها ، تضع قدميها على الرمال ولا تترك أثرًا ، أمشى وراء سرابها علَّنى أعثر على طيفها .

يندهش عقلى قائلاً : "تركتك منذ سنين يا صديقى".

لماذا يرفض جسدك ألم رصاصتها الأخيرة ؟ ألقته بوجهك فى ظرف مغلق وغادرت حزينة .

لماذا يرفض عقلك تصور وجودها الآن بحضن رجل آخر أكثر احتراماً لأقدامها المحلولة من قلبك الغادر ؟

أخرجنى مواء قطتى الصغيرة من ذاكرتى ، وجلستْ امامى على الصفحة البيضاء ، تمنع قلمى من استكمال رسم خطوطه المملوءة بلاهة.

حاولتُ إزاحتها، لامست أطرافها المجروحة، أبت بإصرار غريب أن تنقل قدميه من على الصفحة.

فتحت درج المكتب وأخرجت قطع اللانشون والخبز ، وفركتهم فى بعضهم ، وحين أصبحوا بين أطراف أصابعى كالكفتة ، ألقيتهم بعيداً على البلاط.

هربت القطة نحو الفخ ، نظرتُ فى عيونها البريئة وهى تلتهم اللانشون بشهية فاجرة، وحين انتهت منه تماماً ، عاودتُ إمساك القلم ، وجدتها تجلس مرة أخرى على الصفحة البيضاء ، وأصبع اللانشون بين قدميها !!

تراجعت بجسدى قليلاً ، حاولت تذكر مشهد التهامها للطعام من لحظات ، لم يصدق عقلى المعجزة ، فالطعام الذى قذفته بعيداً والتهمته القطة كان سراباً فى روحى ولم يحدث مطلقاً .

إذ كيف عادت مرة أخرى بأصبع اللانشون بعد التهامه لتضعه على الصفحة البيضاء أمامى ؟؟!!

ماذا حدث ؟ هل هناك قوى خفية تدفعنى للجنون، سمعت عقلى يموء بجوراى ، ويعلن إيمانه بالسحر .

(٥)

رسائل أتلقاها وأعيد إرسالها بحياد ، رسائل أتلقاها وأرفض تقبلها ، وتظل عالقة بروحى ، رسائل سرية لا تعرفها إلا جروحى .

فقدت سر الكلام منذ بدايات تعرفى على الشفرة ، رسائل تقودنى إلى رسائل ، ولا نهاية .

أبحث عن المعنى والاستمرار ، فلا أجد إلا جملة واحدة مكتوبة على الحوائط والأسقف ، تقول : " ليس هناك خيار " .

أهرب من رسائلها التى تبعثها كل دقيقة ، محاولاً الإجابة عن سر الفقد ، أعجز عن مبادلتها الرد ، لأن روحى ترفض معرفة مكانى.

أوجعتنى رسالتها الأخيرة : " اختارت لى الرحيل واخترت الصمت ، فلماذا الحزن الممزوج بالألم ؟"

كيف كتبتْ هذه الحروف على هاتفها المحمول ، وأطلقتها فى لحظة ؟ أكانت تبغى قتلى برصاصاتها الخادعة ، أم كانت تريد نسيانى ؟

فى المشهد الأخير وقفتْ وكلها ذهول وقوة وصرخت بوجهى كأنها تكتب مرثيتها قائلة : " عندما أستشعر حاجتى إليك ، لا يعنى أننى أفتقدك ، لكننى أفتقد إحساس الحياة معك ، فالحياة بدونك تفتقر إلى الحياة ، يقتلنى إحساس أنك تحيا بدونى ، وكأن وجودى فى الدنيا مثل عدمه ، تفرض على حياتى وجودك ، سواء كنت حاضراً أم غائباً " .

لجهلى المفرط ، حملتُ رسائلها الكثيرة وأخفيتُها فى قلبى ، دفنتها فى قاع بعيد ، لا يمكن حتى لنفسى أن تعرف مكانه .

أقابلها اليوم بروح الأب المسؤول عن تدمير حياتها ، ألاطف قلبها لتنسى أحزانى ، أتساءل فى براءة خادعة :" كم عانت لتتمكن من السعادة ؟" يأتينى طيفها المغرد من حولى تاركاً رسالة أخيرة بدون عنوان .

أنطلق وأجرى باحثاً عنها وسط الزحام ، تدفعنى الطرق إلى المدن والحوارى ، يقابلنيِ المارة بوجوه متسائلة عن رفيقتى التى ملأت قلوبهم بالسعادة.

يسألون عن مكانها أو رقمها ، أعبث فى ذاكرتى ، فاشلاً فى العثور على أية إشارة ، تدلنى على طيفها .

(٦)

أغوص كل يوم فى شوارع المدن البعيدة ، تتلقفنى يد ماكرة وتعيدنى على أول الطريق ، أسير على غير هدى ، لأجد نفسى بمدينة أخرى لها نفس ملامحى.

أجلس بجوار الرصيف ، أتحرك باتجاه المقهى ، أغادر المطعم لأعود لمدينة أخرى أكثر بؤساً وغرابة .

يوميات غريبة ، وجوه بشرية كثيرة تتقاذف روحى ، وتسعى معى لنجيب على الأسئلة الكثيرة التى خلقتها بخيالى .

يمر الجميع مذهولين ، متسائلين : " كيف عاد إلينا ؟ "

أعود محاولاً الإجابة على تساؤلهم ، يبادلونى الذهول ، ويتباهون بدهسى، علَّنى أفيق.

أهجرهم لمدينة أخرى ، تطرح نفس الأسئلة ، أهرب وأعود ، وكأن المدن والشوارع لا تنتهى .

شىء ما يلازمنى أينما ذهبت ، طيف المفقودين على جوانب المقاهى ، يقفون ويلوحون بأياديهم ، ووجوهم الباسمة تدفعنى لطريق العودة .

رغم إشارتهم المتنوعة وأسنانهم البيضاء ، أجد نفسى دائماً فى غابة المجهول .

من يعيدنى لرمل البحر وعذوبة الصياد ويرفع من حولى أطنان الحواجز؟

تخرج الصراخات المكتومة من قلبى ، تدفعنى لمواصلة السفر ، أملاً بتشَّمم رائحة عرقهم ، لو رأيت أحدهم فى أية بقعة سأتعرف عليه ، يشبهون ملامحى ، وآثار الشقى تظهر على أصابعهم وجبينهم .

أهيم كالتائه بكل الموانئ ، ولا أجد إلا طيف وجوهم ، هل هربوا، ولم يتركوا إلا اشباح تلاحقنى؟

فى البراويز تعلوا صورتها بمدخل قلبى ، الآن أكتشف سبب هجراتى وبحثى عن المجهول ، فبين دفتها يكمن خلاصى.

(٧)

حمولات كثيرة أرفعها على ظهرى ، وأسير سنيناً طويلة ، غير عابىء بصوتها الحنون .

وحدى رفعت أطنانًا من الحجارة الصمَّاء ، علنى أستنطقها ، تبادلنى الصمت والهذيان.

أشير لها على ظهرى المقسوم ، تندهش وتطلب فى براءة تخفيف الحمولة ، أحاول وأحاول ترك هذه الأثقال بعيداً ، لكنها ترفض وتنعتنى بالغادر .

الصخور الصمَّاء تنطق ، وتدفعنى للجنون ، تبادلنى الأسى ، رغم أنى الوحيد الذى تحملت كل قسوتها ونتوءاتها ، وحين نطقت نعتتنى بالسافل.

من حق الحقول أن تحزن والعصافير أن تبكى ، لماذا تحملت طوال السنين كل هذا العبء ؟

لماذا صدقت أنينها المخلص ، وتصورت أنك بكامل طاقتك ستعيدها لعالم الملائكة؟

اليوم فقط تتذكر همسها الطيب وهى تشفق عليك من جبروتك .

- أكنت ترغب فى سعادتها ،أم كان يكفى صراخها لتعلن العجز؟

-نعم الصخور مازالت حزينة منك وعليك ، لأنك الوحيد الذى فهمت لغتها ولم تجارى جنونها .

أستدعي الرحلة ، وشريط القطار السريع ، وهو يخطف البسمة من عيونك ، تصورت يومها أن قذف روحك خارج الشباك سوف يضع حداً لآلام ظهرك ، لكن العبء زاد ، والألم توطن .

أشتاق اليوم لإعادة الحمولة ، علَّها تحمى ظهرى العارى ، أحتاج الآن لنورك يملأ روحى ويعيدنى ملاكًا.

أرجوكِ ارأفى بحالى، فلى قلب واحد يتدفق منى ، فكيف أخرج منه إليكِ ؟

لى رغبة أخيرة :" الإحساس بدفء روحك و تقبيلك ، والنوم بحضنك ، وتحسس شعرك ويديك والنظر فى عينيك ، ليحيطينى رحيقك".

لى رجاء أخير :" أن أتدفأ بملمس أصابعك الرقيقة ، وأطرافك وملابسك ، والعيش بعض الثوانى فى وجودك "

لى حلم واحد:" فهل تحققيه ؟"

كيف تركتينى كل هذا الوقت وتمكنتِ من العيش مثل موج البحر ونور الخلاص خارج حدودى ؟

كيف تعودين يا أرق مخلوقة؟ لأحس بنبرة صوتك وهي تردد : يستحق حبي كل شيء .

(٨)

حتى وأنتِ بعيدة يمكنكِ جرحى ، يا هول تأثيرك ، رغم الهجر والقسوة ، مازل بإمكانك أن تمسكى السكين وتقطعين شراييني .

المصيبة ليست فى جراءة قلبك الميت ، أو حمية سكينك الجاهز دائماً للعصيان ، المشكلة تكمن بجوارحى المفتوحة لاستقبال رسائلك .

مرة أخرى يعود صوتها ودوداً ، فأصدق نبراته واسير ورائها ، فتتركنى على أول الطريق ، كأنه قدرى أن أتلقى سيوفك دون رحمة .

يعاندنى اليوم الدم المسكوب ، بفعل غزوتك وتغريس خنجرك فى أحشائى ، يرفض صمتك أن يظهرني كمتهم فى جريمة لا تدل على شىء .

فقط لا تتذكر روحى ، إلا قميصك الشفاف الناعم الملتف على قوام جسدك المبهر .

يومها خلعتِ أمامى بنطلونك وبلوزتك القطنية ومشدك وكلوتك وأصبحت عارية تماماً ، لم تلتفتِ إلى دهشتى ، وأمسكتِ الكيس المغلق ، وأخرجتِ القميص الأسود العارى الذى أحضره صديقك الجديد فى عيد ميلادك .

ارتديتيه من كف قدميك ، غطى وركيكِ وفتحتك ببراعة ستانه الشفاف ، شدته أطراف أصابعك الساحرة ، إلى أعلى بطنك ، حين لامس حلمات صدرك وجدتنى بقربك ، كالمسحور.

طلبتِ منى فى خفة ربط أطرافه فوق أكتافك ، لم يظهر منكِ إلا بياض رقبتك ووجهك المضىء.

فى هذه الليلة لم أتمكن من إخلاعك القميص الشفاف إلا بحل العقدة التى صنعتها بنفسى حول رقبتك .

وقتها هجرتنى أحلامى وانطلقت للمجهول غير عابئة بحمية سكينك القاسى .

المدهش أنه رغم فراقك ، مازلت أعاتب روحى التى فكت عقدتك وحررتك حتى من صدى صوتى الذى تاه منكِ .

نعم لم أنهار، حينما سمعت صوتك فى التليفون وهو يهمس ببراءة على رجلٍ ضحَّى بحياته من أجلك: " أيوة ، أنت مين ؟! "

(٩)

- الوداع يا ملاكى ، دون رسائل أو مقابلات أو دموع ، دون ألم .
- الوداع يا طيبة العيون يا رؤوم ، دون حضن دافىء أو صوت حنون .
- الوداع يا عصفورتى الصغيرة ، دون نظرة أخيرة فى عيونك ، أو همس أو عتاب .
- يا كل المتبقى لى ، الوداع للمرة الأخيرة ، لأننى فى اللحظة التالية سوف أموت .

أحس بكيانى يتدفق ، تخرج روحى أمامى وتطير ، تطارد الشياطين التى تهرب مفزوعة من موت جسدى ، وقدرتى على مواصلة اليقظة .

أتشبث برموش عينها وملمس أظافرها، أتذكر السلسلة المعلقة على صدرها، حاملة صندوقها المغلق على صورة والدها.

أحاول العودة للأيام والاماكن التى أخذتنى هناك ، وحركت فى قلبى وميض سرها الأبيض .

تقترب من جسدى الذى يرفض رؤيتها فى المشهد الأخير ، أحس أن روحى وقعت على الأرض مجروحة برصاصها البرئ ، تناثرت وتحولت لقطع صغيرة دامية على الأرض .

لولا توسلى للنور ، ليعيد رائحة شعرها الذى دفّأنى ، وهى تجاورنى فى الباص الذى يقلها إلى بيتها ، لكنت الآن ودعت جسدى ورحلت دون تشمم عبيرها .

العابرون الذين لا يعرفون قيمة تشمم رائحة الجنة ، ولو لمرة واحدة ، تكفيهم الحسرة دون الشعور بالألم .

نعم يمكن أن تهدر حياتك وحياة جيلك للإحساس ببهجتها ، وتلمس دفء حضنها ولو لمرة واحدة ؟ إذ لا يهم بعد ذلك أنها هربت، لأن عطرها سوف يلازمك.

يكفينى اليوم أن أظل وفياً لهذه الرائحة التي تكفينى حتي الموت.

(١٠)

مجنون أنا الليلة ، سعيد بزفافى إلى الموت .

من مثلى اليوم ؟! سأتزوج عروسة اسمها النسيان ، يجب أن أكون سعيدًا قدر استطاعتى فى ليلتى الأخيرة مع الذاكرة.

الدفوف تدق حول رأسى ، ألوان وأشكال من نساء ورجال أعرفهم ، يأتون ويغادرون كل ثانية .

تُرى من كانت أحب امرأة منهم إلى قلبى ؟ أذات النهود الممتلئة ، أم ذات الفرج الغارق بين الأفخاذ ؟ أذات الشعر الناعم ، أم ذات القلب الدافىء ؟ تُرى من ستفوز معى بالليلة الأخيرة ؟

تواصل الدفوف جنونها وأنا أطير حولها فى دائرة غريبة ، ممسكاً بيدى شعرها المفرود ، الذى يلف ويلف ، ليلقى بكل حمولتى وذاكرتى بعيداً فى البحر.

وحدى أسبح بين الأمواج ، أتجنب الدوامات وصندال البحر التى تمتلىء بالأسماك ، والزيوت ، والملابس المهربة .

الجزر الصغيرة لا تتحمل فراقك ، أعرف اليوم أنكِ غير معنية برحيلى ، أنسى عن حب قلبك الحزين لفراقى ، أتمنى الوصول لشاطىء آخر ينجينى من نبرة صوتك .

أرجوكِ لا تأسفى على قسوتى ، فأنا الغادر الذى قرر التضحية بروحه ، من أجل خلاصك .

يرد السكون صمتك المدوى ، وتهرب الروح من جسدى ، فأعاود صنع أحجبتى التى تساعدنى على النجاة .

القدر المعاند يكشف طرقى البائسة فى النسيان ، ويصرخ: " يا غادر !! كيف طاوعك قلبك كل هذه السنين على تركها وحيدة ؟"

أترنح محاولاً التماسك ، يمسسنى جن وشيطان أزرق ، يأخذنى من جزيرة إلى أخرى ، على أمل دفن ذاكرتى المفتتة .

(١١)

أدخل آية الأسى إلى أعماقى ، أعادنى إلى روحى الأولى التى لم يلوثها البشر .

عُد مرة أخرى ، وانتشر بين ثنايا جسدى لتدربنى على الألم .

ارجع ، ولا تخف مرة أخرى من أحلامى ، التى تمزقت دفعة واحدة أمامى.

ازدهر يا نور الشمس ، لتدلل على غباوتى وخيبتى ، اليوم لم يعد لى شىء .

خمسون عاماً مرت وأنا مازلت أناطح الشمس ، وهى تضحك وتضحك من جهلى، وتسألنى فى اندهاش : " كيف للأحلام أن تهزم الحياة ؟! "

عذبنى يا بقايا الأمل ، وغادر بلا عودة .

النهاية كتبتها بروحى ، شهدتها وعايشتها بنفسى ، لم يدلنى أحد على الطريق ، لم يختبرنى أو يسألنى ملاك أو شيطان .

وصلت وحدى إلى المرسى الأخير ، رغم كل ذلك جاءتنى الليلة الماضية وهى ترتدى قمطتها الحمراء فوق رأسها ، جلستِ بجوارى فى باحة فندق كبير ، تحيطنا الأشجار والفاسقيات ، السماء المفتوحة بين المبانى العالية تنظر إلينا حزينة .

وضعت حقيبة كبيرة بيننا ، وقالت : " الآن خذ حقك واتركنى حقي " .

فتحت الحقيبة المملوءة بالأوراق والمفاتيح والذكريات ، أخذتْ ما يخصني ، وتركت بقايا أوراق وتماثيل ورسائل وصور ، فقالت بحسرة : " أعطيتك كل شىء " .

رفع كل منا حقيبته المحملة بأسراره بعد شق حقيبتا المشتركة لنصفين ، وسرنا متوازيين فى صمت إلى صالة أخرى ، مملوءة بالرجال الضاحكين والنساء الفاتنات .

ألوان الوجوه المتنوعة ترهبنى ، ضاعت روحها المتدفقة وسط الزحام، روحى الغائبة عن الوعى تتلمس عودتها ، أو الإحساس بوجودها بين أصناف الطعام .

اقتربت منى امرأة سوداء ثمينة ، توزع الحلوى من خلف ساتر خشبى ، ناولتها يدى ، نظرت فى عينى بصمت وأعطتنى ببهجة ورضا طبقًا كبيرًا عليه كل أنواع الطعام.

الصراخ يملأ المكان ، الروائح تتداخل والألوان تفترق وتنتشر من حولى ، وجوه غريبة تعلن انتهاء الحلم ورحيل النور .

تتخبط أقدامى وجسدى فى ملابس البشر المذهولين ؛ إذ كيف للنور أن ينقطع فجأة عن فندق تعلو نجومه السبعة فوق السماء ؟

قادتنى روحى لخارج القاعة ، جلست على الأرض أتناول طعام المرأة الودودة فى صمت .

عادوا جميعاً فخورين بملامحهم الغليظة وضحكاتهم المبهجة، كأنهم بذور تتفتح من جديد فى أرض أعماقى ، التفوا حولى، وقالوا لابنهم الذى شب وسطهم حتى أصبح رجلا بشنبات :" كيف نسى قلبك وجوهنا وأيادينا الطيبة كل هذه السنين ؟"

حضرت معهم كالماء العذب ، وقالت للرجال الذين علمونى الحب : " لا تظلموه ، فأنا مدينة بلا قلب " .

(١٢)

ابتهجى يا شجرتي ، تناثرى تحتى وفوقى ، فنحن فى بداية الخريف ، املئى الأرض بأوراقك ، لا تبتئسى من لونك الباهت ، فالربيع انقضى ولم يأخذ مني كفايته .

تناثرى يا رمز رحلتى الضائعة ، جفى يا عروق شجرتي ، واسمحى لشعاع الشمس بالمرور بين أعرافك ، اكشفى عن لون السماء المفتوحة لبقايا قلبى، الذى كان يملك العالم بشعرك المفرود .

ادهسوا يا أقدام البشر الأوراق المتساقطة التى تملأ الأرض ، دوسوا بأحذيتكم ولا يهمكم شىء سوى محو دموعى .

اسخروا كما تشاؤون من خيباتى ، لأننى صدقت دوام الربيع وظل الشجرة التي تحميني من القيظ .

تناسيت عن جهل يستحق ضحكتكم ، بأن الحكاية تبدأ وتنتهى بفصل واحد، لا تتغير نهايته منذ بداية الدنيا ، مروا يا رفاقى من جوارى دون أن أحس بكم ، واصلوا سيركم دون أن تنسو القاء بصاقكم على وجهى .

البلاد تهرب مني وتضيع ورداتى فى زحمة الأحداث ، تضاجعنى السنابل والعيون الذابلة ، وتنتظر فى محطات الباص أغنيتى .

تفتعل عيناك الرحيل المفاجىء، وتتركينى أسير ثيابك الملتفة على رقبتي .

أترجل من خلفك دون اعتبار للجفاف ، وأختفى فى العتمة، لأشاهد نور عينيك، وأناديك: " انتظرينى خلف الأبواب ولا تهجرى عيونى ".

تتأسفين على جرحى وتنكرين معرفتك برقة مشاعرى وتتركينى ، وسط قضبان المحطة وحيداً وترحلين.

يلتفون حولى بجلاليبهم الغارقة فى العرق ، يمسكون الشماريخ ويركبون الحمير بوجوه قوية ، ينزلون من على ركوبتهم فى صمت ، ويدورون حولى بصبر ويحملون جسدى ، يصرخ كبيرهم: " لا تلمسوا قلبه " .

أبحلق فى وجوههم ، أتذكر بهجتهم فى الليالى الطويلة حول ركية النار التى تدفىء عظامهم وقلوبهم .

أكواب الشاى الصاج تمتلىء بالحب وتدفىء قلبى المجروح ، يضحكون من حولى بوجوههم المشقوقة ، يلامسون بأصابعهم الخشنة جفونى وجبينى ، يطلبون من السماء حماية المتبقى من روحى .

(١٣)

ازحف معى للممر ، أرجوك شاركنى لحظتى الأخيرة ، المس يدى قبل أن أغرق للنهاية ، أرجوك ، أرغب فى تذكر وجهك الضاحك وأنا راحل .

لا تبخل على ضعيف هزمته الدنيا ، وجعلت من ضلوعه جسرًا للممر الغارق بين حلمين ، بين ضفة متروكة تمتلىء بالحسرة ، وضفة أخرى تنتظر حزنك واندهاشك .

أرجوك انصفنى كآخر بشرى ، حاول أن يسمعنى دون أن يهتم بوجيعتى ، أنا مواطن بسيط ، عشت حياتى وسط ربيع الدنيا وشوارع مدينتك .

لا تضحك منى او تسخر ، فانا الذى سمعت صوتك وهو يصلى الفجر ، ويعاشر زوجته ، ويسرق فى الموازين ، أرجوك حِن على بلمسة أخيرةِ قبل رحيلى .

اقترب منى ولا تشح بوجهك عنى ، فأنت الأمل الوحيد الباقى قبل حلول الظلام .

لا يمكنك نسيان لقاءاتنا المشتركة بين الحدائق ، لا يمكنك نكران صوت العصافير والبلابل التى أذهلتنا .

أمسكت بيدى وسرت معى لخارج الأسوار وضحكت من براءتى ، وقلت وعيونك تمتلىء بالطيبة : " سوف تنجح فى اجتياز المحن " .

تحسست شعر رأسى وأنا بين أحضانك ، ثم تركتنى وحيداً دون وداع ، حين طال غيابك نظرت حولى ابحث عن قوتك ، لم يكن هناك إلا أسوار الحديقة وأصوات البلابل .

جلست على الرصيف غير عابىء بدخان السيارات واندهاش المارة ، أخرجت ولاعتى ، وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتى وضحكت ، كان الممر أمامى طويلاً ، فقمت واثقاً من صمودى وفقدك ، وغادرت لمحطة تالية تُظهرك كبطلة ، لا مثيل لبحة صوتك .

(١٤)

بحجم العمر والسنين والأيام الطويلة نزواتى ، كيف يمكن حصرها فى كتب اوأوراق ؟

كل ثانية أتلقف خبرًا يؤكد رحيلك ، أكان ما بيننا سراب ، أم أن عقلى التائه يتذكر أوهاماً وأحداثاً لم تقع ؟!

أتساءل فى ذهول :" هل أكتب عن لون عينيك الحساس وملمس جسدك المشدود؟ أيمكن حصر تألقك الذى يتبدل كل لقاء فى كتاب كبير أسميه روحى ، وأبيعه على الأرصفة لمن لا يقرؤون أو يسمعون؟"

فقط يجرحون وجهك بسخريتهم وبصاقهم على الأرصفة ، وأنت تتلمس منهم أن يفتحوا قلب أسرارك برفق ، كأن العمر رحلة فى مدن الضياع ، كأن الحكاية كلها أن تخرخ من قلب عامر بالحب ، وتدخل لقلبك المهزوم .

- أكل مرة أفشل فى تخطى الحجاب الحاجز ؟
- أكل مرة أهرب بجلدى ولا أواجه ؟
- أكل مرة تسخر منى وترفض أن تنازلنى ؟ أم أن جبنى من الحياة هو الذى يعيدنى للموت؟!

أحصر الماضى لحظة بلحظة وموقفًا بموقف ، أيمكننى كتابة الآلاف الصفحات التى تدلل على فقدى؟

أضاع العمر بين هذه الشوارع ، ووسط المقاهى والمطاعم دون الإحساس بوجودها أو بغيابها ؟

أتحايلت على نفسك ، أم خدعت المسكينة ، لتظل واقفة على المحطة الأخيرة ، دون أمل فى ظهورك ؟

اكتب والقِ بسلة المهملات ، علك تنجو من الفضيحة ، ارسم رائحة الطيور، وألوان الوجوه ، والعيون المندهشة على هدر عمرك فى انتظار ما لا يجىء ، غنِّ واعزف وارقص ، لأن ما ضاع فى الطرقات امتصه العمر فى قاع بعيد .

أجلس على كرسى المقهى وحيداً ، أنادى على النادل ، ليأخذ الحساب ، لأرحل كعادتى كآخر زبون ، لا يقوى على مجالسته أحد .

يفاجئنى بالجلوس ، ينادينى باسمى الذى عُرفت به ، قائلاً بتباهٍ: " أطلقناه عليك لشقاوتك " .

سألنى عن حالى، ونظر فى عيونى بدهشة ، وتركنى بأسى للشارع .

كدت أسمع صوته وهو يبتعد قائلاً : " صاحب العوض موجود!! "

(١٥)

حان وقت الكذب أيها الأفاق ، حان وقت ابتداع الحيلة والتفنن فى المكر؟ إذ كيف ترغب فى استكمال العمر وجبينك المُرصَّع بالفشل يفضحك ؟

لم يعد لك إلا اختلاق الأكاذيب ، يجب أن تحترف الطرق والوسائل التى تبرر مهنتك .

نعم ستنجح ، فأنت البطل الذى هزمت النجاح ولم تستحِ ، أنت الذى شاهدت كل المآسى وأخفيتها عنا ، نعم ستنجح فى النسيان وتغمض عينيك منذ اللحظة .

يفتح الباقى من العمر يديه لمرحلتك الجديدة ، فادخل وبارك نفسك أيها الشيطان ، واصرخ بحب وثقة : " لم يعد بقلبى اليوم سوى البغض" .

يجب أن أتمرن على الصمود لبلوغ القمة ، يجب أن أشير للكلاب على فريستهم ، لأسعد بدورى الجديد .

لكن يا تُرى ، هل سأقول الحقيقة ، أم كعادتى سألوع ؟ الآن أنجح ببراعة فى الكذب حتى على نفسى ، فيجب ألا تعلم روحى مع من تتعامل.

سوف يفتح المتبقى من العمر شهيته لك ، كى تلتهمه بصدق ، وتطير إلى عالم جديد كنت تأمل بلوغه .

تدفعنى الأسئلة لمزيد من الحيرة ، ألست أنا ابن الحى الذى رفرفتْ فى سمائه المحبة ؟ ألم تشاهد عيونى قلوب النساء العامرة بالأمل ؟ ألم أسمع صوت المؤذن فى عز الليل ؟ : " الصلاة خير من النوم " .

ألست أنا من هرب لقمة الجبل ليبكى وحيداً ؟ لماذا تركت القلب وعدت بجسدك ؟!

غرز الحوارى تتكرك ، والروح حزينة ، قلب الفواكه ينحنى ، والظهر مال .

رجاء لكل من يعرفنى ، أو يعثر علىَّ فى الطرقات أن يذهب إليها ويفتح قلبها ويبحث عنى ويعيدنى إلى أهلى فى الحى .

توسلوا إليهم لقبولى، اطلبوا منهم ان يغفروا لابنهم المغدور.

تركتهم ورحلت وراءها، معتقدا إيمانها بوجودى، كان يكفينى رحيقها الساحر.

انتظرت سنينا على بابها لتفتح و تترك الباقى من العمر يستريح فى أحضانها، حين دخلت لم أجد إلا فراغ روحى ، الباحث عن الأمل.

أرجوكم خذونى جثة ميتة، لأعيش وسطهم كخيال لذكرى مضحكة.

رجاء أخير لكل من يسمع عن قصتى ، بتركى أواصل السير في صفحتي لنسيان كل شىء ، فلم يعد " شىء " يستحق الحياة .

(١٦)

أغلق سماعة التليفون، والتفت إلىَّ مرة أخرى ، تعرَّفْ على نفسك من صوتى، الذى ترفض الاعتراف به .

أنت المجنون الذى كان يُحدِّث نفسه ليلة الأمس ، والمتسول الذى كان يتمنى النعمة من سيده .

أنت الكاهن الذى ظل يعاتب الله فى محرابه على خلقه دون العالمين أفاقاً ، وتمنيت المرأة المستسلمة إلى قلبك وهى على سرير الاعتراف ، وداعبت شعرها بشهوة ، لم تحسها براءتها، لكذبك .

لا تنسَ شيئاً أيها المخادع ، فأنت من اعتلى المنبر ونادى فى المسلمين بالفلاح والصلاح ، أغلق الباب وانظر إلىَّ ، ليس هناك أحد فى الحجرة سوى أنت .

مع من تتحدث إذن؟ لا تخدع نفسك ، يجب أن تترك الدنيا لغيرك ، يجب أن تغادر معلناً فشلك فى هزيمتى ، أنا بجوارك ، أنام فى حضنك كطيفك ، أعرف عنك أكثر مما تعرفه عن نفسك ، أينما كنت ، لا يمكن أن تستغنى عنى أبداً .

لن أكون جاحداً مثلك ، وسأرحب برجوعك رغم قسوتك ، فالدرس الذى تعلمته كفيل بركنك بجوار الحائط كالجيفة ، لم يبقَ إلا طيفى ، فاسمع صوتى ولا تخف .

أنزوى مندهشاً من تمرده ، ألاطف الأشجار وحشائش الحدائق علَّها تسمعنى ، وتحن على قلبى ليخرج من الحسرة إلى عالم السخرية ، ويدفعنى لمواصلة السير فى طريقه الطويل .

أنظر خلفى ، قائلاً : " لا تلمس أى شىء يُذكرنى بأنك كنت هناك " ، لكن قلبه الميت ، يدفعنى بركلة فى دمى ، فيعيدنى من جديد دون أحلام أو ذاكرة .

أغلق سماعة التليفون وأصرخ : "نعم أعرفك" ، أنت الشبح الذى دمر حياتى بأحلامه البريئة ، إياك أن تخدعنى مرة أخرى ، يكفينى ما أكلت من خبزك المسموم .

يخرج من أحشائى ، يجلس على المكتب ويضحك ، قائلاً : " واصل خيبتك أيها الفاشل " ، فلن يعود شىء ، فالمدينة التى لا تعرف الأبرياء هجرتك للأبد .

(١٧)

انتظر كالكلب نظرة شفقة ، نظرةِ أمل ، انتظر فلن يأتى أحد ، هرب الجميع دون وداع.

الأصدقاء الذين كانوا أوفياء ، والحبيبة التى كانت عاشقة ، الزوجة التى كانت مخلصة ، والأولاد الذين كانوا أشقياء ، الأم والأب والأخوات والجد والجدة، الجميع هرب من وجهك ، فماذا تنتظر يا كلب ؟

اصرخِ واستنجد الشفقة والعطف ، فنحن لا نحِنُّ أبداً على أمثالك ، حتى العضمة سوف نحرمك منها، فأنت من جنس نجس ، إذا رأيناه بأعيننا نقض وضوئنا .

كيف تركنا أمثالك يعبثون بيننا كل هذا الوقت، دون أن يشير أحد العقلاء على جسدك الجربان لنطرد روحك يا نمرود ؟! لماذا تذكرنا برائحتك وذيلك وصوتك المفزع طوال الليل ؟

لماذا تستنجد يا كلب؟ ألا يمكن أن تدافع وحدك عن وجودك ، دائماً تحتاج النجدة من البشر الذين خدعوا فى براءتك .

اخلع سلاسلنا من رقبتك ، وامشِ بعيداً ، لا تلتفت وراءك ، لا تنظر خلفك، فالجميع لا يرغب فى رؤية عيونك يا منجوس .

أنظر فى عيون الناس، وهم يجلسون على المقهى ، أتمنى أن يحن أحدهم علىَّ بلقمة أو نظرة حنونة .

أسمع صوت الأطفال والشيوخ، وهم يصرخون فى وجهى، ويسبون روحى ولسانى الملوث بالوسخ .

أهرب بعيداً للخرابات ، منتظراً شفقة أى روح بكلمة ، حتى ولو شريرة .

تلاحقنى السحالى والأبراص والثعابين والكلاب التى تشبهنى ، أختفى وحيداً بالخرابة، خلف جدار عالٍ ، تجرحنى أصوات شماريخهم الثقيلة ، تنزل على رأسى بالضربات دون رأفة .

رغم نباحى وصراخى ، لكن قلوب البشر لا ترحم الكلاب .

الدم يملأ فمى وأقدامهم ، عيونى الباكية ونباحى المتكرر المستغيث ، لا يردعهم عن مبادلتى نصيبى من الذل .

تغمرنى السماء برحمتها ، فيهطل المطر غزيراً ، تسودُّ الدنيا أمام عيونهم جميعاً ، فيتوقف شرهم .

أتحسس الأرض بأقدامي المشقوقة ، علَّنى أجد مكانًا آمنًا أبيت فيه ليلتى ، لكن الحية بنت الشيطان ، تُكمل الطريحة التى بدأها الأحبة ، فتلدغ قدمى المجروحة ، لتحيل صراخى إلى جنون عاجز .

أبحث عن ابن الإنسان والحيوان لينجدونى ، الجميع هرب من الليل والحسرة ، وتمتع بدفء حجرته المغلقة وسط وجوه أقرانه .

أجلس وسط الوحل ، غير عابىء بالثعابين الليلية التى لا تظهر إلا عيونها وأسنانها المسمومة ، وأنام ليلتى ككلب .

(١٨)

غيروا الأسماء والعناوين ، غيروا واجهات المنازل ، أغلقوا شيشان البلكونات والشبابيك حتى تمتلىء حجراتكم بالسموم .

انطفأ القلب الأحمر وأصبح لونه باهتًا لا يعبر عن شىء ، من حقهم اليوم كل شىء ، ما دمت أغلقت الباب على نفسك.

لماذا فتحت علبه الألوان، وأظهرت ملامحك المدهوسة ولون قلبك الأسود؟ لماذا أغلقت نور الشباك؟ كان يمكنه أن يجلب إليك النور.

– أرجوك لا تذكرنى بالشارع ، فأنا سعيد باسمى الجديد .

– لكنك تركت المفتاح فى الباب من الخارج ، فمن سيفتح عليك ليريك الظلام ؟

– لا أعرف ، ولا أرغب فى رؤية أحد منهم .

– أنت تكذب، لأنك تركته بالباب ليشفق عليك أحدهم ويفتحه لك حين تصرخ من الألم .

– وماذا كنت سأفعل ؟

– كان يمكنك أن تدخل والمفتاح فى جيبك وتغلقه من الداخل ، حينذاك لن يشعر بك الجيران ، وبالتالى لن يفتح عليك أحد الباب أبداً .

اندهشتُ لطريقته وقلتُ لنفسى دون أن يسمع صوتى أحد : " الفكرة مازالت طى التنفيذ " .

قمت مهرولاً لأفتح الباب وأعيد المفتاح لجيبى ، لكن الجميع اشترك فى غلقه بيد واحدة ، حتى لا يروا وجهى للأبد، وألقوا بكلمة السر فى المجهول .

"الأبواب الأبواب "، من يفتحها لقلبى الحزين ؟ المفاتيح ضاعت فى الزمن.

من يطرق على أذنى طرقتين ، ويلقى بعينى نظرتين ، الأولى للحسرة والثانية للحزن ؟؟!!

أيمكننى إعادة الباب المفتوح ، ليدخل الأهل والأصدقاء وحبيبتى وقتما يشاؤون ؟ لكن لا أحد يرغب في رؤية وجهى ، لا أحد يريد ان يسمع صوتى ، الكل مشغول بأحداث المدينة التى أغلقت أبوابها ، وتركت أهلها وسط البحور الغريقة .

أرجوكم إن قرأتم قصتى أو سمعتم عنى ، لا تبخلوا بكسر الباب أو الشباك ، فإنى أحلم برؤية وجوهكم الضاحكة .

(١٩)

لو كان لى عمر آخر لهاجرت ، لو كان لى قلب آخر لأبحرت .

أين أذهب اليوم ؟ وكيف أخرج من وسط كل هذه الجموع التى تراقبنى ؟ دون أن يرانى أحد ، لأحقق أمنيتهم فى ألا يروا طيفى يمر .

كيف أتحول لذكرى ؟ وأحلق فى الفضاء ، وأسألهم دون أن يحسوا بوجودى ، فيجزموا بأنهم لم يسمعوا عني ، كيف أدهشهم ؟ وأفاجئهم باختفائى ، دون أن يحسو برحيلى.

الجميع ينتظر مرورى ، ليغرسوا عيونهم المشتاقة فى مشاعرى البرئية.

نعم يمكننى الخروج ، أتذكر لعبة الترابيزة المقلوبة، والكراسى الموسيقية ، خدعت الجميع بخرقك الشروط ، لم يتمكنوا من إعلان رفضهم لأن طرق اللعب ليست محددة .

أغريتهم ليلعبوا حسب الأصول ، وفى لحظة قررت العدول ، واخترت وحدك الجلوس مكان الملك .

تمهل يا صديقى وراهن على ماضيك ، أعلن للجميع استمرارك فى التحايل على خلط الألوان التى تكشف نواقصهم .

راهن بعمرك على موسيقى لم يسمعوها ، وحين يقتربوا من اللحن ، اخطف العود ، وانطلق لتعزف وحدك دورك المفقود .

نعم ستنجح لأنك ابن الخطية ، سمعت أذنك اسمك بوضوح ، الجيران والأهل والأحباء والأوفياء ، ينعتوك دائماً بالعار الذى لازمك فى كل رحلاتك .

تتساءل الان فى غرابة : " كيف لامرأة مثل أمى عاشت بينهم كملاك أن ينعتوها كل صباح بالشرموطة؟!"

أريد أن أخدعهم ألف مرة ، لينسوا جريمة المسكينة التى قذفت لهم هذا العار ، أرجوكم إن رأيتموها ، اطلبوا منها أن تسامحنى على قتل حبيبها .

(٢٠)

لست قرينك ، أنا المخادع الذى لازمك خمسين عامًا دون هوية .

يجب أن تعترف بهزيمتك ، أمام جبروت قناعى ، يمكنك الإجهاز علىَّ الآن ، وتركى هشيماً وبقايا رماد ، لم يوجد أصلاً فى حياتنا .

تقمصت جسدك ، ولعبت كل الأدوار ، من تكون أنت سوى قطعة فى رقعة شطرنجى ، لم تتجاوزنى يوماً ، كنت دائماً تفكر ألف مرة قبل نقلك من الرقعة.

كنت دائماً تخاف من الملك والخصم ، لم تجرؤ يومًا على ترك ملعبى والتحرك دون إرادتى .

أنا خصمك اللدود ، هل عرفتنى؟

أعيش بداخلك ، وأحيا بسطور كتبك فى حرية ، أسمع أنينك بالليل والنهار ، فى الفرح والحزن ، لأنقلك من الرقعة ، حسب نزواتى .

الآن قررت ببساطة أن أضحى بك ، فأنت العسكرى الأخير ، الذى سيُمكننى من الفوز.

ترى لو كنت مكانى، هل كنت ستفعل، غير ما قمت به أنا فى النهاية .

يجب الفوز دائماً ، بصرف النظر عن العواطف التى يدهسها الجميع بأقدامهم ، يستخدموها فقط ليسموا مجدهم فوق الجبال ، لكننا لا نعيرها أى اهتمام.

نبكى ونحزن لها نعم ، لكنها أبداً لا تحرك إرادتنا ، أتدرى ، لماذا لعبت دورك بكفاءة حتى النهاية يا صديقى ؟ لأربح أنا وأظل الملك الذى يحترف إبداع قواعد جديدة للعب .

لا تتساءل الآن عن قوتى فى تكبيل روحك ، وتقييدك بإشارات عيونى .

أندهشْ من جنونى و جبروتى ، فالسر يكمن فى حروف ثلاثة، تملأ روحك بالحيرة ، ولا يمكن أن تغادر قلبك أبدًا ، لكنى سوف أرحل وآمل أن تحرق قناعى .

أرجوك لا تكرهنى ، لأن ذاكرتى هى الباقية لك ، اعطف علىَّ ، تلمس لى العذر ، يمكنك بذلك أن تستقيم وتواجهه وتحيا وتضحك وتسخر مثلى من نفسك.

(٢١)

تحسس مثلى طعم المرارة ، تذوقها بحب ، فهى الباقية لك من رائحة الحياة ، استطعمها لأنها الأمل ، فى الوصول لمرادك .

أنت معنى مثلى بروحك ، فتحمل ولا تشكُ من الذل ، أنت محظوظ لأن الملايين حلموا بها ، ولم يشموا رائحتها .

منطلق أنت وسعيد ، لأنك دون البشر ، جلست وحدك تستمتع بذكريات لا تفوح منها إلا رائحة الألفة والود .

فأية متعة أكثر من ضياع عمرك فى البحث عن طعم السعادة ؟!

وفى كل مرة تحس بلسعة الفراق والإهانة ، ألست محظوظًا مثلى ، ومن فعلها غيرك ونال طعم الألم ؟

اشكُ لله حالك ، لأنك لم تتذوق ولو مرة واحدة طعم البهجة .

لا تنخدع مثلى ، فالذين يضحكون حولك ، يسخرون من جنوننا.

نعم يكفيك العيش الباقى فى عمرك ، بجوار الشباك تتفرج عليها وهى تلعب مع رفاقها الأشقياء .

انظر من بين فتحات الشيش على عينها الدامعتين ، واشكر ربك ، لأنك بعيد عن يومياتها المملوءة بالحياة .

لا تتساءل كثيراً عن قوتها ، لأنك لن تفهم أبداً سر نضارتها .

نعم هى ساحرة ، تتمكن من العاشقين وتدفعهم للتضحية بكل لحظات عمرهم من أجل سعادتها .

احمد ربك ، لأنك نجوت من تحت قدميها بجرح واحد فقط ، فالمئات الذين حلموا برائحتها ، دهسهم جبروت قطارها الراغب فى التحدى والطيران .

تصوروا بجهل خفة روحها المنطلقة، فدفعوا كل ما يملكون من أجل تشمم بهجتها، نعم كانت سعيدة و هى تمد حبال الأمل ليخطو بأجسادهم نحو مصيرهم المحتوم.

فصلت روحها ببراعة عن كل ما يربطها بعالمنا ، بصرف النظر عن الضحايا الآملين بالنوم فى أحضانها.

أعلن هزيمتك برضا ، وارحل لمكان بعيد ، فالمدينة الساحرة لا تقبل الطيبين.

(٢٢)

من قتل رفيقى، واغتال جثته ، وأفقدنى نور عينيه ؟ تركنى القاسى، دون وداع أو كلمة ودودة ورحل فى صمت .

سلاماً وبرداً يا صديقى ، يا من جلست بجوارى سنينا تبحث عن سر الأسى فى روحى .

ارحل بصفاء نيتك وطيبة عينيك ، ودموعك النازفة فى حوارينا ، ارحل فلم يعد لك مكان بيننا .

فى اليوم الذى قررت أن أذهب إلي حجرتك المعلقة فوق أسطح المنازل ، لأعترف لك بحقدى ، قررت الرحيل ، دون تحقيق أمنيتى الوحيدة التى دمرت روحى والمتبقى من حياتى .

كيف أسأتُ معاملتك؟ وتصورت كذباً على نفسى بأنك خصمى اللدود ، اعذرنى يا ضنى روحى إذ كنت تسمعنى ، فالقلب يُولد عامراً بالحب ، ونحن نستبدله فى براءة بوسخ البهائم .

الصقيع يملأ الشوارع ، وأنا أترجل حول المنزل الذى طهرته أقدامك ، أتلمس الدفء من روحك .

المطر يهطل على الحى ، أختفى هارباً بين حوائط الرصيف ، وخلف المقهى ، أراك وأحس بنبضك يحتضن قلبى ، ويدفعنى للنسيان ، أسمع صوتك ، وفمك الباسم ينطق باسمى .

ينقشع البدر ، وتهرب السحالى حين يطوف خيالك كموج فى ذاكرتى ، أنظر للسماء الصافية ، أشاهد طيور الجنة ، والحمام الأبيض ، يغردون ويفردون أجنحتهم فى وداعى .

أنظر فى عيونهم بشغف ، محاولاً التعرف على صديقى الذى رفض بقسوة اعترافى ، ورحل دون وداع .

لم يعد الآن مكان للأسئلة ، لا يهم من قتله أو اغتاله ، فالساقية مازالت تدور ، وتبحث عن أجمل ما فينا ، لتقذف ببارودها القاسى فى قلوبنا ، لتفقدنا أنفسنا .

لا يهم الآن الخيانة أو الحب ، المهم أن نستمر هاربين فى المقاهى و الشوارع ، حاملين أحلامنا فى القاع البعيد ، كى لا يدهسها القاتل .

(٢٣)

أضع علامات الكفن بين ضلوعى ، وأنتظر موتى ، أضع علامات الطريق فوق جفونى ، وأنتظر إشارة المرور ، من يتمكن من فتح الطريق ، وإزاحة الفاصل بين الليل والنهار ، ويتركنى لأذهب وحدى بعيداً عن طيفها ؟

عاجز أنا عن تلبية رغباتها ، اختارت الحيرة وتركت لها الحسرة .

أخذتِ كل شيء وتركتينى مفقودًا أواجه مصيرى .

يجب وضع قلبى فى الفراغ الواسع ، ليدوس عليه المارة ، ويطعنوه بالسيوف التى أثقلها القتل والحرق.

بمجرد أنْ تمكنتُ من ترويض حصانى ، غادرت سعيداً دون كلمة او وداع.

من يعيد رغبتى فى الحياة ؟ ويأخذنى لقناعها السحرى ، ويجرح جسدى وينشر رحيقه في الفراغ .

فى عيون الليل تنشغل الفراشات بتجاهلى ، ويمشى الورد مختفياً مع الربيع ، يترك الأحزان والأوراق المتساقطة على الأرض.

تضيع ملامح الأشياء ، وتنهار الفواصل ، وأنا حائر بين الليل والنهار ، أشاهد الربيع ، وتغرينى الزهور بتفتحها .

رائحة الريحان المنطلقة تنعش حسرتى ، حبات التوت تزدهر بين الأوراق ، ألوان الخريف المرعبة ، تغرب من قلبى وتتآسى على حالى .

يأخذنى صباح قاسٍ إلى أماكن ترفضها جوارحى ، ورغم ذلك أستمر ، الغربة تنهش عقلى ، وتأخذ منى نعمة البصر والبصيرة ، العيون العسلية تهرب بعيداً .

أسمع صوتها هادراً : " طالت غربتك ، لا تنتظرنى . "

لن أخرج اليوم فى صحبة أحد ، فقلبى مصاب بالعطب ، العصافير تغرد لرحيلى ، وتحط بأجنحتها على الفصل الجديد الهارب من روحى .

أهجر الجميع ، وأتصور أننى أعيد الكرة لدورانها .

الساقية تدوس بتروسها على عظامى ، وأنا سعيد بدورانها الخلاب .

مرسوم على جباهنا هذا القدر الذى نرفضه ، ومع ذلك لا يرى أحدنا ، فى حياة الآخرين إلا هزيمتهم ، مع أنه لو دقق النظر ، لرأى حياته فى كل العيون .

كحية كبيرة تتراقص أمامى على ضوء المصباح وموسيقى هندية مغرية ، تسخر منى وتدفعنى للفرجة على كرهها المبهر ، يتحول جسدها إلى جذع شجرة ضخمة ، ينشطر رأسها الضخم إلى أوراق وأعراف كثيفة ، تتساقط ثمارها النضرة على الأرض ، ويرفرف ورقها بحب ليظلل الأرض .

فجأة تصمت الموسيقى ، فتخفى الحية والأشجار، والودودن الحالمون بالحماية من قيظ الشمس ، أعود مرة أخرى لكفنى وجفونى ، أقف حائراً فوق الخيط الفاصل بين الحسرة والسخرية ، غير عابىء بجروحى.

(٢٤)

طلقة تساوى رصاصة ، تكفى لموتك ، وهى تمر أمامك متأبطة يد حبيبها الجديد.

تبتعد عينها عن روحك حتى لا تقتلك ، طلقة مُغلَّفة فى رسالة ، أطلقتها بمهارة القناص ، لتقتل فى روحك رائحة وبهجة نورها .

دعتك لحلبة الرقص بقلب الميدان ، لتشهد جثتك توديع آخر ما تبقى فيك من أحلام .

تجهزتَ للقاء ، تعطرتَ برائحتها ، ومررتَ على صديقك العجوز بائع الورد ، ليلف لك عطر البوكيه الأخير .

كان سعيداً بحضورك ومقلاً على غير عادته فى حديثه .

رفض تلقى ثمن الوردات ، فداعبت روحه التى رفضت أخذ عزاءك.

ركبت التاكسى مسرعاً لملاقاتها ، لإبلاغها بالعودة سليماً من الأسر .

تصورت وجهها الساخر وهو يُقبِّلنى قائلاً : " حمدًا لله على سلامتك " .

دخلت مسرعاً ، والوردات الحزينة ترفض مغادرة قلبى .

تتساءل عيون المارة عن حامل الورد فى الليالى الممطرة ، أسمع أصواتهم الساخرة من بهجة قلبى النازف برسالتها المجهولة .

شاهدت اندهاشًا وحبًا وكرهاً تجاه ورداتى، التى ستفارقنى بعد لحظات إلى قلبها .

جلست بقلب الميدان منتظراً حضورها ، عيون البشر الهادرة وأصواتهم الصاخبة ، تراقب مشهد هجومى ببوكيه الورد ، ووضعه بين أيادى محبوبتى المخلصة .

ظهرتْ فجأة متأبطة يد حبيبها الجديد ، وأطلقت رصاصتها الأخيرة فى مواجهتى ، لولا أننى أحنيت رقبتى بعيداً ، لدمرت طاقتها أوراق وردتى.

ضربات القلب تكاد تنفجر فى روحى ، السماء تلقى بأطنان المياه ، تصرخ الوردات من الغبار المخلوط بطين المطر وتعلن حسرتها .

أخلع المتبقى من ملابسى لأحمي المتبقى من لون الورود و رائحته ، البرد يفتك بوجهى المجروح، الملم بقايا دموعى وأنهض دون قرار.

أنادي على بائعة الشاى التى أجلس بالقرب من نصبتها ، أعطيها ثمن القهوة التى لم أشربها ، وأناولها ورداتى ، وأغادر وحيداً .

(٢٥)

حمّل أغانى ببلاش واتسلى ، ليس عليك إلا إرسال رسالة فارغة لرقم أنت تعرفه ، هيا يا صديقى ، لا تتردد فى تفريغ قلبك من الهم .

فيكفى أن تمسك قطعة الحديد التى تتحدث بين يديك ، لترسل منها رسائل فارغة ، لتتلقى أجمل النكات والضحكات .

قاوم وقاوم ، لتثبت لنفسك أنك كنت تحافظ على شىء ، أهم من حياتك نفسها ، والآن أصبح هذا الشىء مثارًا لسخرية الجميع .

لو كنت تعرف منذ البداية، أن الرسالة التى تسليك ، سوف تقضى على أحلامك ، لكنك تماديت، وأمسكت بقطعة الحديد وأرسلت حروفها البريئة ، فتلقيت الرصاصة التى أطاحت بعشقك للأبد .

نعم "لا شىء "يضاهى عمرى الضائع تحت قدميكِ ، "لا شىء " يعوض حياتى ومشاعرى التى فرمتها الرسائل الفارغة إليكِ .

ومع ذلك مازلت تتلقى كل يوم من عيون الجميع بهجة الصبح ، وكأن " لا شىء " لم يجرح قلبك الوحيد.

أى ظلم قدمته الحياة لمشاعرك ، كانت تمر حاملة رغيف الخبز الطازج ، لولا شهيتك المفجوعة ، لمرت أمامك دون أن تحس بقلبك الغادر .

رغم أن كيسك المملوء بالخبز ، لم يكن كافياً ليملأ عيونك الفارغة، اشتهيت خبزها فى طمع .

استدرجتها بجوعك ، أم استدرجتك برائحة طعامها الصابح؟ كانت تعلم بثقل حمولتك وطمعك ، فواصلتِ السير على طريقين ، روت بحبها قلبين ، كانت تعلم أن قلبًا ورغيفًا واحدًا لا يكفى، وسط كل هذا الغدر .

حين قدمت نفسها إليك رفضتها ، واستطعمت خبزك البارد ، وقتها وفى لحظة مباغتة قررت تركك ، وسارت باتجاه الطريق الثانى المخفى عن عيونك ، لأنها تعلم أنه الأمل الوحيد ، لتلافى آثار قسوتك .

تلقيت رصاصة من جفونها وهالتها ، وأرسلت قبلة حزينة، تلقتها جوارحك باندهاش ، فبادلتك بالبارود ليتفحم قلبك .

دائماً تتركنا الدنيا ، أمام الطريقين والقلبين ، لتترك لنا الاختيار بين الشخص وقرينه ، بين روحه وجسده .

من تكون هى ؟ ومن تكون أنت؟ لتكونا هدفاً واحداً للقدر ، ليلعب معكما لعبته المعتادة .

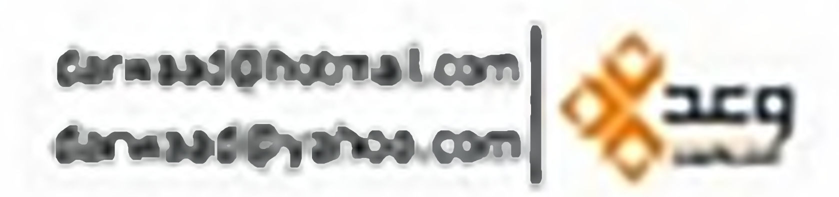
أطلقت على نفسها فى رسالتها الأخيرة " لا شىء " ، وتركتك تقرأ وتكتب، عن رجل يُدعى " شىء " ، ضحى بحياته ، ليسعد امرأة ، لا تحمل اسمًا، ولم تترك عنوانًا .

الوراق

فبراير ٢٠١٣

كره مابر

أطلقت على نفسها في رسالتها
الأخيرة "لا شيء" ، وتركتك تقرأ
وتكتب عن رجل يُدعى "شيء"
، ضحى بحياته ، ليسعد امرأة ، لا
تحمل اسمًا ، ولم تترك عنوانًا



darwaad@hotmail.com
darwaad@yahoo.com